

## ويزداد غبائي غباءً

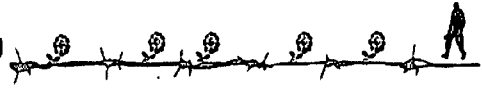
غبية أنا... ويزداد غبائي يوماً بعد يوم، أمعقول أنني لم أتمكن من التعرف عليه رغم أنه كان جالساً أمامي بعظمته وهيئته؟، وكنت غبيةً عندما فسرت تلك العظمة والهيبة على أنها وقاحة وغرور، أمعقول أنني لم أعرف الغضنفر عبد القدوس...؟ معقول، لا ليس معقولاً، بل إنني لم أكتفِ بعدم معرفته وحسب، بل استهزأت به ولم أمنحه الوقت ليكمل رسالته التي كان يود مني أن اكتبها لوالدته... بضعة سطور هي ما كتبت من أجله، ثم توقفت عن الكتابة متذرةً بأنني لا أملك الوقت اللازم لإتمام رسالته، تركته جالساً وقمت واقفةً على قدمي وتركت المكان. لا أعلم ماذا قال عني عندما تركته وحيداً ليعاودوا تكبيله وإعادته إلى زنزانته مرةً أخرى، ذلك الصنف من الرجال لا يقول ولا يشكو همه لأحد، بل يُبقي جرحه داخله ولا يسمح لصرخة الألم أن تخرج من فمه.. اليس هو عبد القدوس الذي أمضى عدة أشهر تحت العذاب في أقبية التحقيق الصهيوني دون أن ينكسر صمته، ودون أن يكشف سرّه أنه الغضنفر، وأنا «فلسطين، الفتاة الغبية. نعم غبية أنا، وغبائي يزداد يوماً بعد يوم، فمنذ أن أهملت دراستي لم أتمكن من الحصول على المعدل الذي يؤهلني لدخول كلية الطب، أدركت أنني غبية، غير قادرة على احتمال عدة أشهر من المذاكرة حتى أصل إلى النتيجة التي كانت شبه مؤكدة، فلقد كنت طوال الأعوام الماضية طالبةً متفوقةً ومتميزة، الكل كان يتوقع مني أن أحصل على أعلى العلامات، فمنذ طفولتي وأنا أحصل على معدل «تسع وتسعين بالمائة»، ولقد كان دخولي لكلية الطب مضموناً ومؤكداً، لولا غبائي،

بل لولا استهتاري، ولولا ذلك الغرور الذي أصابني، فأنا جميلة والكل يتغنى بجمالي، وذكية الكل يمتدح ذكائي، وسريعة الحفظ للدروس ومهاراتي متميزة في حل المعادلات الرياضية، ولكنهم لا يعلمون أن جمالي الظاهر يغطي غروري وتكبري، وأن ذكائي المعلوم لديهم يخفي غبائي في عدم معرفتي لما أريد.

فأنا حين لم أتمكن من الحصول على ذلك المجموع الكبير، اضطررت إلى دخول كلية لم أرغب بها، ولم أحبها أبداً، وهي كلية الحقوق التي دخلتها كارهة، ومع ذلك فقد حصلت على درجة التميز عندما تخرجت منها.. تميز في العلامات وتميز في عدم مقدرتي على الاندماج في تلك الكلية، فما علاقتي أنا بدراسة الحقوق والمحاماة، وأنا أكره المحاكم والمجرمين والقضاة... بل إنني أكره اسمي «فلسطين» وما أدري لماذا سماني والذي بذلك الاسم.. فلسطين. فلسطين المعاناة والمأساة، فلسطين القضية التي لم تحل ولا أظنها ستحل أبداً، فلسطين المحامية كيف لها أن تكون محامية، وكيف لي أن أحمل اسمها على بطاقتي الشخصية، وهي فلسطين الوطن الأسير المحتل.. المحتل منذ أعوام ما عدت أذكر عددها من كثرتها، فلسطين المحامية تدافع عن المجرمين أو حتى عن أصحاب الحقوق أمام المحاكم الفلسطينية، وأين يحدث ذلك كله؟، يحدث هنا في فلسطين المحتلة التي تحكم السلطة الفلسطينية بعض مناطقها وتقيم بها محاكم مدنية وشرعية. منذ أن كنت متدربة في أحد مكاتب المحاماة بمدينة القدس المحتلة، كنت أكره التوجه إلى مناطق حكم سلطة أوسلو لحضور جلسات المحاكم هناك... فتلك المحاكم السلطوية المدنية لا تقل فساداً عن سلطة أوسلو، فالرشوة والمحسوبية والواسطة منتشرة بتلك المحاكم انتشار النار في الهشيم. ولذلك، فقد تركت تلك

## الفصل الأول : ويزداد غبائي غباءً

المحاكم السلطوية الفاسدة لكي أترافع أمام محاكم العدو الصهيوني الظالمة، فقد أقام الصهاينة في المناطق المحتلة محاكم عسكرية يصدرون من خلالها أقصى وأعلى الأحكام الجائرة على كل من يقاوم الاحتلال، سواء أكانت تلك المقاومة بالكلمة أم بالاحتجاج السلمي أم بالحجر الطفولي أم بالرشاش المقاوم، كما فعل الغضنفر عبد القدوس الذي لم أتمكن من التعرف عليه بل إنني أهنته، فظل صامتاً وكأنه بركان على وشك الثوران والانفجار. حدث ذلك عندما كلّفني صاحب المكتب الذي أعمل به، بزيارة عدد من الأسرى والمعتقلين الفلسطينيين في سجون دولة الكيان الصهيوني الغاصب، فبعد إعطائي قائمة تضم أربعة أسماء، ركبت سيارتي مصطحبةً معي محاميةً أخرى، وهي «مجدولين» صديقتي التي أعرّفها منذ أعوام طويلة، منذ أن تعرفنا على بعضنا البعض في كلية الحقوق التي ما زلت أكرهها حتى الآن.. مجدولين لم تكن مثلي قط، فقد دخلت كلية الحقوق رغم أن علاماتها تؤهلها لدخول أي كلية تشاء، ومع ذلك دخلت كلية الحقوق لكي تحقق حلمها في الدفاع عن أبناء مخيمها الحزين وبناته، فهي مقدسية ولدت في مخيم شعفاط، وهناك عاشت المعاناة والظروف الصعبة والفقر، عكسي تماماً فأنا ابنة عائلة مقدسية ثرية تملك منزلاً فخماً في إحدى ضواحي القدس، لم أعش أي نوع من أنواع المعاناة ولم أتم جائعة أو بردانة في أي يوم من أيام حياتي، فأنا الابنة المدللة لأب طيب حنون، وأم محبة عطوف، حتى إختوتي الصبيان، فقد كانوا كلهم يعاملونني كأنني جوهرة أو ماسة مقدسة، فأنا أصغرهم سناً وأكثرهم دلالاً... أما مجدولين، فقد كانت صخرة مقدسية مثل صخور القدس، بل كانت قطعة ذهبية من تلك القطع التي تزين قبة المسجد الأقصى المبارك.



بينما كنت أقود سيارتي متجهة نحو سجن مدينة بئر السبع الصحراوية، كانت مجدولين تقلّب أوراقها وتتحدث بهاتفها الجوال، أما أنا فقد كنت أتحدث مع نفسي متسائلةً عن غبائي الذي جعل مني محامية تقود سيارتها عدة ساعات حتى تقابل أسرى ومعتقلين فلسطينيين، أحبوا فلسطين فقاتلوا لأجلها وأسروا فداءً لها، وأنا فلسطين المحامية أكره طول الطريق المؤدي لسجنهم رغم أن سيارتي الفارهة مكيفة ومريحة أكثر من اللازم كما تقول مجدولين.

مجدولين التي أنهت مكالمتها وبدأت بمحادثتي موجهةً إلي السؤال المعتاد عن الأسرى الذين سآزورهم، وعن أسمائهم... لم أجبها بل اكتفيت بأن أشرت إلى دفتر مفكرتي، فقامت على الفور بفتحه لتقرأ أسماء الأسرى الذين كنت قد حصلت على تصاريح من أجل زيارتهم، وهم أربعة أحدهم اسمه أحمد، والثاني هيثم، والثالث حسين، والآخر كان اسمه عبد القدوس. لم أكن أعرف أيًا منهم، ولم يكن يهمني معرفة تفاصيل حياة أحد من أولئك الأسرى، فانا لم أكن أهتم بالقضية التي أسروا دفاعاً عنها، وهي قضية تحرير فلسطين... فلسطين- التي هي أنا- غير معنية بفلسطينهم.. فلسطين المأساة والتضحية والمعاناة لم تكن تعنيني يوماً، فكيف سوف أهتم لأمر من قاتلوا لأجلها، أما مجدولين فقد كانت تعرف أسماء الأسرى كلهم... كلهم بالآلفهم المؤلفة، وكانت تحفظ بداخلها قصص بطولة أولئك الأسرى، بل كانت حلقةً للوصل بين أولئك الأسرى وذويهم. لم تكن مجدولين مجرد محامية بل كانت أكثر من ذلك بكثير. ما إن رأت مجدولين الأسماء، حتى قامت بالاتصال بزميلتنا المحامية «ساجدة»، وأبلغتها بأنني سآزور خطيبها وابن خالتها أحمد، وما إن أخبرتها بذلك حتى أعطتني الهاتف لأتحدث معها، وعندها طلبت مني ساجدة أن أوصل سلامها لخطيبها، وأن أطلب منه كتابة رسالة لها، فهي ممنوعة من زيارته على الرغم من كونها محامية.. أنهيت المكالمة معها، واعدةً إياها بأن أجعل خطيبها يكتب رسالة طويلة تجعلها تمل من طولها.

## الفصل الأول : ويزداد غبائي غباءً

أما مجدولين، فقد كانت صامته على غير عاداتها، فهي ثرثرة تتحدث بلا توقف تارة عن الوضع السياسي أو الوضع الإنساني الذي يحياه أبناء الشعب الفلسطيني، وتارة أخرى تتحدث عن أولئك الأسرى الذين كُرسَت جل وقتها من أجل خدمتهم، ومن أجل التخفيف من معاناتهم، أعطيتها هاتفها فكسر ذلك صمتها، وقالت: اتعلمين أن ذلك الغضنفر الذي ستزورينه اليوم قام قبل أعوام عديدة بضرب أحد سائقي التاكسي من أجلي، عندها كنت في عامي الأول في كلية الحقوق، أما هو فقد كان مهندساً يعمل في أحد المصانع على أطراف مخيم شعفاط، لقد ضرب ذلك الغضنفر سائق التاكسي المتهور الأرعن عندما كاد يصطدم بي، ورغم أنه هو المخطئ أخرج رأسه من النافذة ليشتمني بكل وقاحة، إلا أن ذلك الغضنفر ترجل من سيارته متوجهاً نحوي فرفعني عن الأرض واجلسني على طرف الطريق، ثم توجه نحو السائق موجهاً له اللكمة تلو الأخرى عقاباً له على ما فعل، وعقاباً له على إهانتي بتلك الشتائم التي أخافتني أكثر من الاصطدام بسيارته.

وما إن انتهى من عقاب السائق حتى عاد نحوي ليسأل عني إن كنت بحاجة للمساعدة، فقلت له: شكراً على ما فعلته، فقد أنقذتني من لسان ذلك السائق بعد أن أنقذني الله من الموت تحت عجلات سيارته، فقال لي الغضنفر: هذا هو «كرتي» ومكتوب عليه أرقام هواتفي إذا ما احتجتني كشاهد على الحادثة أو أي أمر يتعلق بموضوع الحادث. ما إن شكرت الغضنفر حتى عاد إلى سيارته وانطلق بها بعيداً، وها أنا اليوم اصطدم باسمه من جديد بدفتر مفكرتي.. وها أنت اليوم يا فلسطين ستزورينه وتمكنين من رؤيته، فسلمي لي عليه، وقولي له إن فلسطين بقدرتها وأقصاها تشكرك وتضعك تاجاً على رأسها. ما إن أنهت مجدولين كلامها الذي لم أكن أستمع له بشكل جيد، حتى كنا قد وصلنا إلى المعتقل، وانفصلنا،

فهي توجهت إلى أحد الأقسام لكي تزور الأسرى الذين كلفت بزيارتهم من قبل مدير المكتب، وأنا توجهت إلى قسم آخر، حيث جلست في غرفة زيارة المحامين منتظرةً الأسرى الذين بدؤوا بالوصول الواحد تلو الآخر. أول الواصلين كان هيثم، أخبرته بأنه تم تحديد موعد لجلسة محاكمته، وقلت له إن السيد عابدين مدير مكتب المحاماة سوف يكون حاضراً للترافع عنه، وأنني سوف أكون حاضرةً معه، ثم سألته إن كان هناك ما يود قوله لي بخصوص القضية، فقال لي أنه لا يوجد شيء جديد، وأنه يعلم أن المحاكم الصهيونية سوف تحكم عليه حكماً عالياً وقاسياً ليس لأن قضيته كبيرة بل لأنه مقاوم مقدسي.

لم أكن مهتمةً بما يقوله باستثناء موضوع المحكمة، وبما أنه لم يقل شيئاً مهماً، أنهيت اللقاء معه.. فحضر بعده الأسير الآخر وكان اسمه أحمد، فأخبرته أنه تم رفض طلبه للاستئناف وأنه لن يحصل على تخفيض في حكمه، فأجابني أنه كان يعلم أن ذلك سوف يحصل، إلا أنه أراد المحاولة ليس إلا، وما إن انتهينا من الحديث حول قضيته حتى طلب مني أن أكتب له رسالة لخطيبته، وقال إنه سيقوم بإملائي الكلمات، فاعتذرت منه متحججةً بضيق الوقت، ففهم ذلك، ثم غادر المكان، ليأتي بعده أسير آخر هو حسين، وما هي إلا دقائق حتى أخبرته بموعد محاكمته وانتهيت من الحصول على المعلومات التي كان الأستاذ عابدين قد طلبها مني بخصوص ملفه، فتركني وغادر مودعاً.

كان الفارق الزمني بين حضور الثلاثة يقدر بنحو خمس دقائق كحد أقصى، أما حضور ذلك الرابع، فقد طال جداً، فلم يحضره السجانون إلا بعد نحو الساعتين وأكثر، ولقد حضر مكبل اليدين إلى الخلف، ومكبل القدمين، وكان هناك ضابط وشرطي يتقدمانه، وشرطيان يسيران خلفه